رسائل ابن الأثير

دراسة في ضوء علم اللّغة النّصّي(*)

علي صبري عطوان

الجامعة المستنصريّة / كلّيّة التربية

(ثمّة جهود تُبذل منذ خمسينيات القرن الماضي لتأسيس فرع جديد في الدراسات اللّغوية يُعرف بـــ(علم اللّغة النّصّي) يرمي إلى الانتقال من تحليل الجملة إلى تحليل النّص ، بوصفه وحدة لغوية ذات بِنية دلالية واحدة ، وأنّه يَنظر في العلاقات التي تترابط بها الجمل داخل النّص ، وكذلك يَنظر إلى العلاقات التي تربط النّص بسياقه ، هذا الاتجاه الجديد في الدرس اللّغوي نال نصيباً وافرًا من العناية والاهتمام ، واتّجه كثير من الباحثين إلى إغناء البحث في مناهجه ، والعمل على تطويرها إلى أن اكتملت – تقريباً- خصوصيات هذا العلم المُميِّزة له من العلوم الأخرى في بداية السبعينيّات التي تُعد بدايته الحقيقة ، وقد دفع هذا التطوّر في مناهج البحث اللّغوي الكثير من الباحثين العرب إلى محاولات جادّة في تأصيل هذه النظرية اللّغوية في التراث اللّغوي ، ومحاولات أخرى في تطبيق هذه النظرية على نصوص عربيّة ترمي إلى إعادة قراءة التراث النّحوي والبلاغيّ والأدبي قراءة لسانية معاصرة ، ومن هنا سعت هذه الدراسة للكشف عن السمات النّصيّة لأنموذج من نماذج التراث الأدبي المتمثل بـــ (رسائل ابن الأثير) وإعادة قراءتها بوساطة علم لغة النّص الذي يقوم على الإحصاء والوصف والتّحليل ، وتبرز أهمية دراسة نصوص الرسائل في أنها تُعد مجالًا جيدًا للدراسة النّصية ؛ لكون الرسالة نصاً يقع بين طرفين محددين (المرسل والمتلقي) يجمعهما زمان واحد ويرتبطان في السياق نفسه، فهو حدث اتصاليّ مثاليّ بين شخصين يمثل مادة مثالية للدراسة النّصية ، وقد اختيرت أربعون رسالة من رسائل ابن الأثير مادة للتحليل من مجموع ثلاثمئة وثلاثة رسائل تجنباً للتكرار الذي ينافي منهج البحث العلمي ، وتقع هذه الرسائل في ثلاث مجموعات ، ضمَّت الأولى (١٦٩) رسالة بتحقيق أنيس المقدسي ، والثانية (٧٨) رسالة بتحقيق د.نوري حمودي القيسي وهلال ناجي ، والثالثة (٥٦) رسالة بتحقيق هلال ناجي ، وقد أُشير إلى هذه المجموعات في هوامش البحث بعنوان (رسائل ابن الأثير/ المقدسي) ،(رسائل ابن الأثير / القيسي ، هلال) ، (رسائل ابن الأثير / هلال) ، ورُقِّمت هذه الرسائل المختارة ترقيماً خاصّاً بوصفه إجراءً منهجياً خاصاً بالدراسة يبدأ بالتسلسل (١) وينتهي بالتسلسل (٤٠) ، وقد اعتمدت الدراسة أساساً على المنهج الذي قدّمه دي بوجراند ودريسلر المتمثّل بالمعايير النّصية السبعة : (السبك، والحبك ، والتناص ، والمقامية ، والإعلامية ، والقصدية ، والمقبولية) بوصفه المنهج الأكثر شمولاً ، مع الإفادة من الجهود الأخرى للباحثين في هذا المجال ، وقد فرض الاعتماد على هذا المنهج أن تكون خطة الدراسة مبنية على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

جاء التمهيد بعنوان (ابن الأثير وطبيعة لغة الترسُّل) ، وقد تضمّن نظرة موجزة عن التعريف بحياة ابن الأثير وثقافته التي كان لها أثر بارز في

تراثه الإبداعي المتمثّل برسائله ، مع التعرض لفن الترسّل وما طرأ على طبيعة لغته من تغيير، إلى أن وصلت إلى ما هي عليه في مدرسة الصناعة اللفظية التي ينتمي إليها ابن الأثير ، وقد كان اختيار الباحث هذه المفردات في التمهيد مقصوداً لبيان السياق اللّغوي وغير اللّغوي الذي جاءت عِبرَه الرسائل، وتضمّن الفصل الأول أربعة مباحث ؛ تناول الأول منها بيان مفهوم السّبك وأنواعه عند علماء لغة النّص ، وبيّن الثاني مظاهر السّبك النحوي في رسائل ابن الأثير ، ودرس الثالث مظاهر السّبك المعجمي ، وشمل الرابع بيان مظاهر السّبك الصوتي ، وضمّ الفصل الثاني مبحثين ؛ عُقِدَ المبحث الأول لبيان مفهوم الحبك ومظاهره عند علماء لغة النّص ، أما المبحث الثاني فبيَّن مظاهر الحبك في رسائل ابن الأثير ، أمّا الفصل الثالث فقد احتوى على المعايير التداولية عند علماء النّص ومظاهرها في رسائل ابن الأثير ، وقد تضمن أربعة مباحث ؛ الأول تناول القصدية والمقبولية في علم لغة النّص وفي رسائل ابن الأثير ، والثاني تناول التناص في علم لغة النّص وفي رسائل ابن الأثير ، والثالث تناول المقامية في علم لغة النّص وفي رسائل ابن الأثير ، والرابع تناول الإعلامية في علم لغة النّص وفي رسائل ابن الأثير، وأمّا الخاتمة فتضمّنت أهم النقاط التي وصل إليها البحث ، والنتائج التي أشّرها ، في الختام لا بُدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الدراسة حاولت الإفادة من مناهج البحث التي أنتجتها النظريات اللّسانية الحديثة ، وتطبيقها على نصوص عربية في ضوء تقديم وصف لغويّ تحليليّ لنصوص الرسائل ، وقد أثبتت هذه المناهج قابليتها على التّطبيق على هذه النّصوص ، بل إنّ بعض خصائص اللّغة العربية قد وسَّعت قاعدة التطبيق في هذه المناهج ، وزادت عليها جوانب لم تكن موجودة في غيرها من اللُّغات ، ولم تُشِر إليها المناهج الغربية، كالجانب الصّوتي المتمثل بالسجع، والجناس ، التي أثبتت الدراسة دورها في سبك النّصوص.

(*) رسالة ماجستير ، إشراف الأستاذ المساعد الدكتور فراس فخري ميران